القرآن الكريم

عناصر الموضوع

مفهوم القرآن	٢٧٠
القرآن الكريم في الاستعمال القرآني	٢٧٢
الألفاظ ذات الصلة	٢٧٣
القرآن الكريم آية وهداية	٢٧٥
حفظ الله للقرآن	٢٨٤
القرآن حجة الله على الناس	٢٩٦
حديث القرآن عن مواقف الناس منه	٣٠٣
الأدب مع القرآن	٣٠٩
أثر القرآن على المكلفين والجمادات	٣١٩

مفهوم القرآن

أولًا: المعنى اللغوي:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، ومن هذا المعنى تطلق كلمة قرءٍ على الحيض وعلى الطهر، فهي من الأضداد، يقال: قرأت المرأة حيضةً أو حيضتين.

والقُرْءُ انقضاء الحيض، على قول البعض، وقال بعضهم: ما بين الحيضتين، والقارئ: الوقت، تقول: أَقْرَأَتِ الرِّيحُ: إذا دخلت في وقتها.

واستقرأ الجمل الناقة: إذا تاركها؛ لينظر ألقحت أم لا، وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرآنًا، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

حاصل ما تم دراسته من تعريفات مصطلح القرآن الكريم هو أنه: كلام الله تعالى القديم، المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، وهو غير مخلوق؛ إذ أنه جزء من صفة الذات العلية، وهو معجزٌ ببيانه، متعبدٌ بتلاوته، منقولٌ إلينا بالتواتر، مقروءٌ في المصاحف، مبدوء بسورة الفاتحة ومنتهٍ بسورة الناس[2].

وهذا التعريف شرحه على النحو الآتي:

(كلام الله تعالى القديم): خرج منه أي كلام غير كلام الله تعالى من قول النبي صلى الله عليه وسلم، أو غير ذلك، وهو قديم؛ إذ إنه أصيل من عند الله تعالى لا يعتريه نقص ولا مشكلة.

(المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم): خرج منه أية شبهة تقول بأنه أنزل جملة واحدة، أو أنه مخلوق؛ لأنه نزل من الله تعالى إلى قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

(بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام): ووساطة سيدنا جبريل عليه السلام تعني أن الكلمات القرآنية نزلت بأمر الله تعالى على لسان سيدنا جبريل عليه السلام، كما علمه الله تعالى.

(وهو غير مخلوق؛ إذ أنه جزء من صفة الذات العلية): بيان سبب أنه غير مخلوق، وهو أن

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٦٤، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٥٠.

(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان ص٦٦، بحوث منهجية في علوم القرآن، موسى إبراهيم الإبراهيم ص١٤.

الكلام القرآني جزء من صفة الخالق، وليس منفكًّا عنه، وبالتالي فإن ما كان جزءًا من الخالق ليس مخلوقًا.

(وهو معجز ببيانه، متحدىً به، متعبدٌ بتلاوته): خرج منه الحديث القدسي، أو أي قولٍ لله تعالى غير القرآن؛ لأن القرآن -وحده- هو المعجز والمتحدى به، وبالذات في وجهه الأصيل وهو البيان، والقرآن -وحده- دون غيره يتعبد به في التلاوة.

(منقول إلينا بالتواتر): إن القرآن -وحده- دون غيره، هو الذي لا يقبل منه أية كلمة منه إلا إذا سمعتها الأمة عبر تواتر أجيال السند؛ إذ لا يكفي خبر الآحاد في النقل، ولو بوجه من وجوه أحكامه.

(مقروء في المصاحف): من هذه الفقرة يتبين أن هناك فرقًا بين القرآن الذي هو كلام الله تعالى، وبين المصحف الذي هو الأوراق المكتوب فيها كلام الله تعالى، أي: القرآن، وعلى هذا فإنه لا يجوز أن يجمع القرآن؛ لأنه واحد، وفي المقابل فإنه يجوز أن يجمع المصحف؛ لأنه أوراق بداخلها القرآن.

(مبدوءٌ بسورة الفاتحة، ومنتهٍ بسورة الناس): وفي هذا إشارة إلى أن القرآن الكريم يتكون من (١١٤) سورة، تبدأ من سورة الفاتحة، وتنتهي إلى سورة الناس، وترتيب السور القرآنية على الراجح توقيفي، أما ترتيب الآيات فإنه بالإجماع توقيفي.

ويظهر أن معنى الجمع والضم في اللغة يتناسب مع ما سمي به القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وهذه السور هي كلام الله عز وجل، بالتالي فالمعنى الاصطلاحي خص بأحد المعاني اللغوية للقرآن.

القرآن الكريم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قرأ) في القرآن الكريم (٨٨)مرة، يخص موضوع البحث منها (٦٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٦٨	﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]

وجاء القرآن في الاستعمال القرآني بمعنى: الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب القاف١، ص٩٣٧-٩٣٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٦٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكتاب

الكتاب لغةً:

الحكم، ومنه قوله: كتاب الله، أي: حكم الله، وكتاب الله: القرآن[١].

الكتاب اصطلاحًا:

«الحجة الثابتة من جهة الله تعالى»[٢]، وقد وردت في القرآن بمعنى التوراة واللوح المحفوظ، والقرآن.

الصلة بين الكتاب والقرآن:

الكتاب هو كلمة تشمل القرآن الكريم وغيره، أما القرآن فهو تلك المعجزة الخالدة، أما إذا عرف الكتاب بـ(الـ) التعريف، فإنها تكون معهودةً على القرآن الكريم.

٢ الكلام:

الكلام لغةً:

اسم جنسٍ يقع على القليل والكثير من الحديث[٣].

الكلام اصطلاحًا:

«إظهار ما في الباطن على الظاهر لمن يشهد ذلك بنحو من أنحاء الإظهار»[٤].

الصلة بين الكلام والقرآن:

الكلام الذي ورد في الاصطلاح لا ينطبق على القرآن؛ لأن القرآن ليس مخلوقًا مع أنه كلام؛ ولذلك فإن كلام الله تعالى ليس ككلام البشر، فهو جزء من صفة الذات العلية، كما أن القرآن الكريم هو محل التدبر والاتعاظ، ولا يكون هذا في كلام البشر.

٣ الذكر:

الذكر لغة:

مصدر ذكر الشيء يذكره ذِكرًا وذَكرًا، وأصل الذكر في اللغة التنبيه على الشيء، ومن

(١) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ١/ ٣٣٥.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٧٩.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٧٢.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المنّاوي ص٢٨٣.

ذكرك شيئا فقد نبهك عليه، وإذا ذَكَّرته فقد نبهته عليه[1].

الذكر اصطلاحًا:

قال ابن علان: «أصل وضع الذكر هو ما تعبدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه»[2].

الصلة بين الذكر والقرآن:

القرآن الكريم جزء من الذكر، وهو أشمل من الذكر في جزئية الإعجاز، والذكر أشمل من القرآن في جزئية أن كل ما تعبدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه، فيدخل فيه ما ورد في السنة المطهرة من النصوص الصحيحة الثابتة.

(١) تهذيب الأسماء واللغات، النووي ٣/ ١١١.
(٢) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/ ٣٩٦.

القرآن الكريم آية وهداية

اختصاص الله سبحانه وتعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم بآية من آياته كاف في الدلالة على نبوته قائم مقام معجزات من سواه من الأنبياء، جعله الله هداية لخلقه إلى كل خير، وهذا ما ستتناوله بالبيان فيما يأتي:

أولًا: القرآن الآية الشاهدة بالنبوة:

لما ابتعث الله رسله عليهم السلام إلى الناس يدعونهم إلى الحق ويهدونهم إليه أيدهم بآيات تدل على صدقهم كعصا موسى التي تنقلب حية، أو ناقة صالح التي أخرجت من الصخر[1]، غير أن هذه الآيات المصدقات كانت محدودة بالزمان والمكان، والسبب في ذلك أن رسالات هؤلاء الأنبياء كانت رسالات لقومهم خاصة، وأن الحجة تقوم عليهم بمعاينتها ثم بنقل خبرها إليهم نقلا لا يدع مجالا للشك فيها عمن عاينها، على قرب عهدهم بها. ثم إن هذه المعجزات تتناسب مع ما برع فيه كل قوم؛ لتكون الحجة أبين وأقوم.

قال الباقلاني: «جرت سنة الله في ابتعاث رسله إلى خلقه؛ لتبصيرهم بعظمته وجمعهم على عبادته، أن يؤيدهم بأمور حسية تخالف السنن الكونية، وتشذ عن النواميس الطبيعية، وتكون من قبيل ما استحكم في زمانهم، وغلب على خاصتهم، وعظم في نفوس عامتهم؛ لتكون معجزة الرسول المرسل إليهم مفحمة لأعجب الأمور في أنظارهم، ومبطلة لأقوى الأشياء في حسبانهم؛ ولئلا يجد المبطلون متعلقا يتشبثون به، ولا سبيلا يتخذونه إلى اختداع الضعفاء؛ فقد أيد الله -جل جلاله- موسى -عليه السلام- وكان عصره عصر سحر، بفلق البحر، وانقلاب العصا حية تسعى، وانبجاس الحجر الصلد بعيون الماء الرواء. وأيد عيسى -عليه السلام- وكان عهده عهد طب، بإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين، وإحياء الموتى بإذنه»[2].

ولما بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، جعله الدرة الأخيرة في عقد النبوة، واللبنة المتممة لبنيانها؛ فهو النبي الخاتم الذي لا نبي بعده: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولذلك وجب حفظ كتاب نبوته من التبديل، وهو الرسول الذي تعم رسالته الناس جميعًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولذلك وجب أن تظل معجزته الدالة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٢٥.

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٥.

على صدقه قائمة بينهم يعاينونها ويشهدونها فتقوم عليهم الحجة بها. وهذا الأمر نص عليه النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**ما من الأنبياء نبيٌ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**)[1].

فكانت معجزته صلى الله عليه وسلم عقلية لا حسية، ومستمرة لا آنية، ولذلك يبقى مفعولها دائمًا وتبقى الاستجابة لها مستمرة، قال السيوطي: «هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراها ذوو البصائر، كما أنه صلى الله عليه وسلم قال: (**ما من الأنبياء نبيٌ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**).

قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه.

وقيل: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًّا»[2].

وتجدر الإشارة إلى أنه عليه -الصلاة والسلام- قد جرت على يديه معجزات وخوارق كثيرة، غير أن الآية الوحيدة التي جعلت شاهدًا على صدقه ودليلًا على نبوته هي القرآن الكريم، فإنه سبحانه «لما أرسل رسوله محمدًا، صلى الله عليه وسلم، إلى الناس أجمعين، وجعله خاتم النبيين أيده بمعجزات حسية كمعجزات من سبقه من المرسلين، وخصه بمعجزة عقلية خالدة، وهي إنزال القرآن الكريم، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولم يقاربوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[3].

وقد وقع التحدي بهذا القرآن للخلق جميعًا، وما زال قائمًا إلى يوم القيامة، لا يجد الناس له معارضًا، ولو بالجزء الأيسر منه «سورة لا تجاوز ثلاث آيات قصيرات

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي إلى النبي صلى الله عليه، ٦/ ١٨٢، رقم ٤٩٨١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.

(٣) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٥.

من مثل سورتي العصر والكوثر».

ولقد نصت الآيات نصًّا صريحًا على أن القرآن الكريم كاف في الدلالة وحده على صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

فقوله: ﴿أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾.. جواب لقولهم ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ﴾ أي: أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولوا أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر، ونحن لا نعرف السحر[1]، وفي الآية إخبار: «بأن الكتاب آية من آياته كاف في الدلالة قائم مقام معجزات غيره وآيات من سواه من الأنبياء»[2].

ويلاحظ أن التحدي بالقرآن الكريم تدرج بصفة تنازلية على مستويات:

- فتحدوا أولًا أن يأتوا بمثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]. «وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا»[3].
- ثم تحدوا أن يأتوا بعشر سور من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].
- ثم تحدوا أن يأتوا بسورة من عند أُمِّيٍّ مثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].
- ثم تحدوا أن يأتوا بسورة مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

قال الخازن: «أي: قل لهم يا محمد إن كان الأمر كما تقولون: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يعني بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم، فأنتم عرب مثلي في الفصاحة والبلاغة.

فإن قلت: قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ وقال سبحانه وتعالى هنا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما؟

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥٥.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٣.

قلت: لما كان محمد صلى الله عليه وسلم أميًّا لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزًا في نفسه، فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعني: مع إنسان أُمِّيٍّ مثل محمد صلى الله عليه وسلم يساويه في عدم الكتابة والقراءة[1].

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: فأتوا بسورة تساوي سور القرآن في الفصاحة والبلاغة، وهو المراد بقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يعني: أن السورة في نفسها معجزة، فإن الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه، وهو المراد من قوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

وهذا التدرج في التحدي مبني على أن الآيات نزلت بهذا الترتيب، قال في الإتقان: «لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إليهم وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، وتحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين، فلم يقدروا كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ﴾ ثم تحداهم بسورة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ الآية ثم كرر في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، الآية، فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن فقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾. هذا وهم الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها؛ قطعًا للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه، بل عدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: (سحر) وتارة قالوا: (شعر) وتارة قالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ كل ذلك من التحير والانقطاع، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنف شيء وأشده حمية، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم

(١) قال ابن عاشور رحمه الله: «فالتحدي على صدق القرآن هو مجموع مماثلة القرآن في ألفاظه وتراكيبه، ومماثلة الرسول المنزل عليه في أنه أمي لم يسبق له تعليم ولا يعلم الكتب السالفة».
انظر: التحرير والتنوير ١/ ٣٣٩.

(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٤٤.

لبادروا إليه؛ لأنه كان أهون عليهم»[1].

أما ابن عطية فعنده أن التحدي بالعشر مبني على التوسيع عليهم في كونها مفتريات؛ بمعنى المضاهاة في اللفظ من غير الالتفات إلى المعنى، وعليه فلا حاجة لكون التحدي بالعشر وقع قبل التحدي بالسورة.

قال: «ووقع التحدي في هذه الآية -آية سورة هود- ﴿بِعَشْرِ﴾؛ لأنه قيدها بالافتراء، فوسع عليهم في القدر؛ لتقوم الحجة غاية القيام، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه الحجة، ونظمه ووعده ووعيده وعجزوا في هذه الآية، بل قيل لهم: عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير والغرض واحد، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه، فهذه غاية التوسعة، وليس المعنى عارضوا عشر سور بعشر؛ لأن هذه إنما كانت تجيء معارضة سورة بسورة مفتراة، ولا تبالي عن تقديم نزول هذه على هذه، ويؤيد هذا النظر أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب، ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة، وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فكلفوا نحو ما قالوا، ولا يطرد هذا في آية يونس. وقال بعض الناس: هذه مقدمة في النزول على تلك، ولا يصح أن يعجزوا في واحدة فيكلفوا عشرًا، والتكليفان سواء، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة، وآية سورة يونس في تكليف سورة متركبة على قولهم: افتراه، وكذلك آية البقرة وإنما ريبهم بأن القرآن مفترى.

قال: وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة»[2].

والحاصل أن القرآن الكريم قد أعلن أن معجزته الشاهدة بصدقه قائمة فيه، وقال للمعارضين: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وأعلن أن إعجازه للخلق جميعا سيظل قائمًا مستمرًّا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولا تعرف حجة أبلغ من هذه، ولا يعرف كتاب تحدى الناس على مر الزمن معلنًا عجزهم عن مضاهاته، بل مضاهاة الجزء اليسير منه.

ومن أعظم دلائل عظمته استغناؤه بذاته في الدلالة على صدقه من غير حاجة إلى شهادة غيره، ورغم أن التواتر حجة عقلية

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٥٥.

قاطعة عند العقلاء، إلا أن القرآن الكريم غير محتاج إليها في إثبات صدقه، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

أولًا: هدايات القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب الله الهادي إلى كل خير، وقد وصفته آياته بأن ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

قال الرازي: «الهدى عبارة عن الدلالة، وقال صاحب الكشاف: الهدى هو الدلالة الموصلة إلى البغية، وقال آخرون: الهدى هو الاهتداء والعلم. والذي يدل على صحة القول الأول وفساد القول الثاني والثالث أنه لو كان كون الدلالة موصلة إلى البغية معتبرًا في مسمى الهدى لامتنع حصول الهدى عند عدم الاهتداء؛ لأن كون الدلالة موصلة إلى الاهتداء حال عدم الاهتداء محال، لكنه غير ممتنع بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

أثبت الهدى مع عدم الاهتداء؛ ولأنه يصح في لغة العرب أن يقال: هديته فلم يهتد، وذلك يدل على قولنا»[(١)].

وعليه فالهداية بيان طريق الهدى بقطع النظر عن سلوك المهدي له أم لا، وتضمن القرآن الكريم لهدى واتصافه به ثابت له بقطع النظر عن استجابة الناس لذلك أم لا. وقد وقعت الهداية في القرآن الكريم بأربعة معان:

«**الأول**: الهداية التى عم الله بها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، بل عم بها كل شيء حسب احتماله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

الثاني: الهداية التى جعلت للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

الثالث: التوفيق الذى يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

الرابع: الهداية فى الآخرة إلى الجنة، وهو المعنى بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾.

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه. ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة»[(٢)].

هذا والقرآن الكريم هاد: «أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم سبب اهتداء للبشرية قاطبة، يرشدها لأقوم الطرق،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢٦٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي ٥/ ٣١٤.

وأصح المناهج، وأعدل المسالك، وهي توحيد الله والإيمان برسله، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وأفضل مناهج الحياة»[1].

وقد ورد ذلك صريحًا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

«والمعنى: إن هذا القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى عليك يا محمد صلى الله عليه وسلم، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم -في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية- إلى الملة التي هي أقوم الملل وأعدلها، وهي ملة الإسلام. فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشقاء»[2].

وقد وقع المهدي إليه في الآية مضمرًا موصوفًا بأنه الأقوم من بين سائر ما يهدي إليه.

قال ابن عاشور: «و﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ صفة لمحذوف دل عليه ﴿يَهْدِى﴾ أي: للطريق التي هي أقوم؛ لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر.

والأقوم: تفضيل القويم. والمعنى: إنه يهدي للتي هي أقوم من هدي كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكًا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة»[3].

وهذا الإضمار -كما يشير إليه ابن عاشور- أبلغ من التصريح، وذلك أنه لو وقع التصريح به لكان قصرًا لهدايته على بعض معانيها دون البعض الآخر، وذلك أن «هذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفارًا، وحسبك مثالًا لذلك أساليب القرآن في سد مسالك الشرك، بحيث سلمت هذه الآية في

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٩.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٣٠٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٤٠.

جميع أطوارها من التخليط بين التقديس البشري وبين التمجيد الإلهي، فلم تنزل إلى حضيض الشرك بحال، فمحل التفضيل هو وسائل الوصول إلى الغاية من الحق والصدق، وليس محل التفضيل تلك الغاية حتى يقال: إن الحق لا يتفاوت»[1].

على أن صاحب التحرير يميل في كلامه هذا إلى أن السعة في أساليب الدلالة على الهداية لا في الغاية المهدي إليها، وهو ما قد لا نوافقه عليه؛ لأن التفضيل في قوله سبحانه: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ واقع على المهدي إليه لا على أساليب الهداية، والأقرب أن نقول -والله أعلم-: إن هذا القرآن يهدي للأقوم من الأقوال والأفعال والمعتقدات، والتصورات والنظم، والأحكام والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وطرق فض النزاعات وإيصال الحقوق إلى أهلها، وحماية الضعفاء والرحمة بالمستضعفين من اليتامى والنساء والولدان، وغير ذلك مما لا سبيل إلى حصره. ولذلك شواهد يمكن التمثيل بها من سورة الإسراء نفسها التي وردت فيها هذه الآية؛ فإن السورة قد تضمنت هداية للناس جماعة كما تضمنت هدايتهم لأقوم السبل أفرادًا، وشملت هداياتها العلاقة بالوالدين، كما شملت أصول الأخلاق، والسبيل الأفضل في التصرف في المال، وما يجب وما يجتنب في العلاقات الأسرية، وأحكام الدماء رابطة لذلك كله بالحبل الأعظم: توحيد الله وقصد وجهه وطلب رضوانه، والحذر من عقابه:

فأما هداية الناس جماعة فشواهدها في السورة مخاطبة الجماعة في نحو: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾، ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾.

وأما هدايتهم أفرادًا فشواهدها خطاب الواحد خاصة في الأحكام المتعلقة بما يتفرع عن شيء في النفس كالكبر في نحو قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦-٣٧].

وأما الهداية لأقوم السبل في العلاقة بالوالدين فدل عليها قوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وفي الإحسان إلى الأقارب وأهل الحاجة: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾. ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ

(١) المصدر السابق.

رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٨].

ولأصول الأخلاق دل عليها: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٨].

وللسبيل الأفضل في التصرف في المال: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦].

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

ولما يجب وما يجتنب في العلاقات الأسرية: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وأحكام الدماء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣].

ويرتبط كل ذلك من قبل ومن بعد برباط عظيم: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾، ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٩].

ومن الهداية بيان صفات الموفقين؛ ليقتدى بهم: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

ومن الهداية بيان سبيل الشر وعاقبة أهله؛ ليجتنب: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤].

﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧].

وبالجملة فقد حاولنا التمثيل لسعة أبواب الهداية التي تضمنها القرآن الكريم من سورة الإسراء التي ورد النص فيها على أنه يهدي للتي هي أقوم؛ للدلالة على كثرتها وسعتها وتعذر إحصائها، وأنه تضمن الإرشاد لكل خير. وتجدر الإشارة في ختام هذا الموضع إلى أن أغلب ما ذكر من الهدايات استنادًا إلى نصوص القرآن الكريم السابقة مرتبط بأمور الدنيا، وذلك يدحض فكرة سائدة تجعل الدين قسيمًا للدنيا، ويرسخ حقيقة أن العبادة الصحيحة هي إقامة الحياة وتقويمها وفق منهج القرآن وفي ذلك السعادة في الدنيا والآخرة.

حفظ الله للقرآن

عهد الله بحفظ الكتب السابقة إلى البشر فحرفوا فيها وانحرفوا عن تعليماتها، وتكفل سبحانه وتعالى بحفظ القرآن من التبديل والتغيير فبقي كما أنزل من عنده، وسيبقى إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وسوف نتناول حفظ القرآن عن سائر الكتب فيما يأتي:

أولًا: صفة حفظ الكتب السابقة:

نص القرآن الكريم على أن الكتب السابقة، خلافًا له، قد عهد بحفظها إلى البشر، وهم عرضة للغلط والهوى والانحراف.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فنصت الآية على أن حفظ التوراة أوكل للربانيين والأحبار ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾، قال ابن عاشور: «والاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أمانة فهمه حق الفهم بما

دلت عليه آياته. استعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة على ما هو عليه. فالباء في قوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ للملابسة، أي: حكمًا ملابسًا للحق متصلًا به غير مبدل ولا مغير، ولا مؤوَّل تأويلًا لأجل الهوى»[1].

فالاستحفاظ -وفقًا لرأيه- هو في الأساس ائتمان على بيان المعاني الصحيحة، المرتبط والمتفرع عن كونهم متميزين عن عموم الناس بعلم الكتاب وتعليمه، ولكنه يعطف عليه أيضًا حفظ حرفه من التبديل فيقول: «ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان.

ومن لطائف القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد ما حكاه عياض في (المدارك)[2]، عن أبي الحسن بن المنتاب، قال: كنت عند إسماعيل يوما فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فوكل الحفظ إليهم. وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فتعهد الله بحفظه، فلم يجز التبديل على أهل القرآن. قال: فذكرت ذلك للمحاملي، فقال: لا أحسن من هذا الكلام»[3].

وعليه فالاستحفاظ كما كان على تبيين المعاني وترك تحريفها، كان على اللفظ وترك تبديله، والمستحفظون هم الربانيون والأحبار.

و«الربانيون: هم الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره، عن ابن عباس وغيره. وقال أبو رزين: الربانيون: العلماء الحكماء. وقال مجاهد: الربانيون: فوق العلماء. والألف واللام للمبالغة.

والأحبار: قال ابن عباس: هم الفقهاء: والحبر والحبر الرجل العالم، وهو مأخوذ من التحبير وهو التحسين، فهم يحبرون العلم، أي: يبينونه ويزينونه، وهو محبر في صدورهم. قال الجوهري: والحبر والحبر واحد أحبار اليهود، وبالكسر أفصح: لأنه يجمع على أفعال دون الفعول، قال الفراء: هو حبر بالكسر، يقال ذلك للعالم. وقال الثوري: سألت الفراء لم سمي الحبر حبرًا؟ فقال: يقال للعالم حبر وحبر فالمعنى: مداد حبر ثم حذف كما قال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

أي: أهل القرية. قال: فسألت الأصمعي فقال: ليس هذا بشيء، إنما سمي حبرًا؛ لتأثيره، يقال: على أسنانه حبر أي: صفرة أو سواد. وقال أبو العباس: سمي الحبر الذي

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٩.
(٢) انظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض ٤/ ٢٨٣
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٩.

يكتب به حبرًا؛ لأنه يحبر به، أي: يحقق به. وقال أبو عبيد: والذي عندي في واحد الأحبار: الحبر -بالفتح-، ومعناه: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه. قال: وهكذا يرويه المحدثون كلهم بالفتح»[1].

وكل من الأحبار والرهبان: «كانوا حفظة على كتاب الله وحراسا له من سوء الفهم وسوء التأويل، ويحملون أتباعه على حق فهمه وحق العمل به»[2]، ولكنهم بدلوه.

وأما دافع هذا التبديل فهو الخوف والطمع، وقد تضمنت الآية الإشارة إلى ذلك في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

قال ابن جرير في سياق بيان معناها: «يقول تعالى ذكره لعلماء اليهود وأحبارهم: لا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي الذي حكمت به على عبادي، وإمضائه عليهم على ما أمرت، فإنهم لا يقدرون لكم على ضر ولا نفع إلا بإذني، ولا تكتموا الرجم الذي جعلته حكمًا في التوراة على الزانيين المحصنين، ولكن اخشوني دون كل أحدٍ من خلقي، فإن النفع والضر بيدي، وخافوا عقابي في كتمانكم ما استحفظتم من كتابي»[3]. ثم روى بسنده عن السدي قال: «يقول: لا تخشوا الناس فتكتموا ما أنزلت»[4]. ولذلك عقب النص على استحفاظ الأحبار والرهبان على الكتاب (بجملة) ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ المتفرعة بالفاء على قوله: ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾؛ إذ الحفيظ على الشيء الأمين حق الأمانة لا يخشى أحدًا في القيام بوجه أمانته ولكنه يخشى الذي استأمنه»[5].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: ولا تأخذوا بترك الحكم بآيات كتابي الذي أنزلته على موسى، أيها الأحبار، عوضًا خسيسًا، وذلك هو (الثمن القليل)، وإنما أراد تعالى ذكره، نهيهم عن أكل السحت على تحريفهم كتاب الله، وتغييرهم حكمه عما حكم به في الزانيين المحصنين، وغير ذلك من الأحكام التي بدلوها طلبًا منهم للرشى، كما قال ابن زيد: لا تأكلوا السحت على كتابي، وقال مرة أخرى: لا تأخذوا به رشوة. وعن السدي: ولا تأخذوا طمعًا قليلًا على أن تكتموا ما أنزلت»[6].

والخطاب في الآية متردد بين أن يكون موجهًا لليهود الذين كانوا معاصرين للنبي

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٨٩ بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢١٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٤٤.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢١٠.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٤٥.

صلى الله عليه وسلم أو الذين كانوا قبلهم، قال في التحرير: «فيجوز أن يكون الخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ ليهود زمان نزول الآية، والفاء للتفريع عما حكي عن فعل سلف الأنبياء والمؤمنين؛ ليكونوا قدوة لخلفهم من الفريقين، والجملة على هذا الوجه معترضة، ويجوز أن يكون الخطاب للنبيئين والربانيين والأحبار، فهي على تقدير القول، أي: قلنا لهم: فلا تخشوا الناس. والتفريع ناشىء عن مضمون قوله: بما استحفظوا من كتاب الله؛ لأن تمام الاستحفاظ يظهر في عدم المبالاة بالناس رضوا أم سخطوا، وفي قصر الاعتداد على رضا الله تعالى»[1].

وفي كلتا الحالتين ففي الآية وصية للصالحين، وهي حجة على المحرفين، وفيها بيان للدوافع التي حملت من حرف منهم على الجرأة عليه.

هذا ومع تطاول العهد، فقد نشأت منهم فئة فاجرة اشترت بآيات الله ثمنا قليلا ووطأتها لكل ظالم خوفًا أو طمعًا، بل إنهم استطابوا ذلك واستمرؤوه بما خالج قلوبهم من القسوة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وأصبح كثير منهم طلاب دنيا؛ يصدون عن سبيل الله حفاظا على مناصبهم ومصالحهم وما ينالهم من أموال الجهلة والدهماء الذين اتخذوهم أربابا من دون الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة ٣٤-٣٥].

هذا وكانت حكمته سبحانه قد قضت أن يعهد إليهم بحفظ كتب علم أنهم مبدلوها، ابتلاء لهم وامتحانًا، وقد سبق في علمه جل وعلا أن رسلًا آخرين سيأتونهم من بعد ذلك بالوحي من عنده، ولما تختم رسالته بعد. وهناك أمور قد وطأت لهذا التحريف وسهلته.

ثانيًا: أسباب التحريف في الكتب السابقة:

تقدم أن الله سبحانه وتعالى قد أوكل حفظ الكتب السابقة إلى الأحبار والرهبان

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢١٠.

واستحفظهم عليها، على خلاف القرآن الذي تولى هو جل وعلا حفظه.

ويلاحظ من ناحية الأسباب فرق أساس ميز الكتب السابقة عن القرآن الكريم؛ ففي الوقت الذي نزل هو منجما نزلت هي جملة واحدة، وكان نزوله منجمًا على أمة أمية تعتمد على الحفظ سببًا في وجوده عند عمومهم وجميعهم كما يأتي، فلا قدرة لأحد منهم على أن يستأثر به من دونهم فيزيد فيه أو ينقص دون أن يتنبهوا لذلك ويعلموا به، وأن يكونوا حجة على تحريفه، بينما كان ذلك الاستئثار في مقدور الأحبار والرهبان الذين كان الكتاب موجودًا عندهم من دون سائر الناس.

ولئن لم ينص نصًّا صريحًا على أن الكتب السابقة قد نزلت جملة واحدة، فقد وقع في نصوص القرآن ما يوحي بشيء من ذلك، كقوله تعالى في شأن ألواح موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

والألواح: «التوراة. وروي في الخبر أنه قبض عليه جبريل -عليه السلام- بجناحه فمر به في العلا حتى أدناه حتى سمع صريف القلم حين كتب الله له الألواح. وقال مجاهد: كانت الألواح من زمردة خضراء. وابن جبير: من ياقوتة حمراء. وأبو العالية: من زبرجد. والحسن: من خشب، نزلت من السماء. وقيل: من صخرة صماء، لينها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقها بأصابعه، فأطاعته كالحديد لداود»[(١)].

قال الرازي: «واعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح، وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي، وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه.

وأما قوله: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فلا شبهة فيه أنه ليس على العموم، بل المراد من كل ما يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام والمحاسن والمقابح»[(٢)].

ويهمنا في هذا المقام أن الآية دلت على أن التوراة نزلت جملة واحدة مكتوبة، ولازم ذلك أن النبي المنزلة عليه قارئ كاتب، وكذا من استحفظوا عليها من بعده.

وقد استنبط من قوله الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. أن الكتب السابقة نزلت جملة واحدة، قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يقول: هلا نزل على محمد صلى الله عليه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٨١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٦٠.

وسلم ﴿ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة؟ قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ تنزيله عليك الآية بعد الآية، والشيء بعد الشيء؛ لتثبت به فؤادك نزلناه»[1].

ووجه استنباط ذلك أن المشركين كانوا في سؤالهم المبطن بالتعجب يقيسون على حالة سبق العلم بها عندهم، ثم إن القرآن الكريم أجابهم على خلاف أسئلتهم الأخرى ببيان وجه الحكمة لا بإخبارهم بأن هذا سنة الرسل من قبل.

قال القطان: «أما الكتب السماوية الأخرى -كالتوراة والإنجيل والزبور- فكان نزولها جملة، ولم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقًا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجمًا، فمعنى قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾: هلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وماله أنزل على التنجيم؟ ولم أنزل مفرقًا؟

ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته في إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وكما رد عليهم في قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾، بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾.

بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن منجمًا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: كذلك أنزل مفرقًا لحكمة هي: تقوية قلب رسول الله ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: قدرناه آية بعد آية، بعضه إثر بعض، أو بيناه تبيينًا، فإن إنزاله مفرقًا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم، وذلك من أعظم أسباب التثبيت»[2].

ولما نزلت هذه الكتب جملة واحدة على أنبياء يقرؤون ويكتبون، ثم كانت بيد الأحبار والرهبان من بعدهم مستأثرين بها من دون عامتهم، فقد كان بمقدورهم تحريفها إما خوفًا أو طمعًا، كما هو مدلول الوصية التي أنزلت إليهم: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٥.

(٢) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ١٠٦.

﴿وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد وقع منهم هذا التحريف حقًّا.

وإذا تأملنا نصوص القرآن الكريم وجدناها قد أشارت إلى ثلاث مستويات من هذا التحريف:

١. إظهار بعضه وكتمان بعضه.

وقد دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فنصت الآية على أنهم كانوا يفرقون الكتاب في صحف أو قراطيس، وقوله: ﴿تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ﴾ صفة لقراطيس، أي: تبدون بعضها وتخفون كثيرًا منها، ففهم أن المعنى: تجعلونه قراطيس لغرض إبداء بعض وإخفاء بعض. وهذه الصفة في محل الذم، فإن الله أنزل كتبه للهدى، والهدى بها متوقف على إظهارها وإعلانها، فمن فرقها؛ ليظهر بعضًا ويخفي بعضًا فقد خالف مراد الله منها»[(١)].

وجلي أن المقصود من ذلك: إظهار ما يوافق الهوى وكتمان ما يخالفه «أي: يجعلها حملتها قراطيس، أي: قطعًا يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون، ويقولون: ﴿هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله»[(٢)].

٢. كتابة ما ليس منه فيه ونسبته إلى الله.

وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

فـ: «توعد تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبًا وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٦٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٠٠.

﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد»[1].

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: «تأكيد وهذا الموضع مما يحسن فيه التأكيد كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبته بيمينك. أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فالمراد: أن من يكتب هذه الكتابة ويكسب هذا الكسب في غاية الرداءة؛ لأنهم ضلوا عن الدين وأضلوا، وباعوا آخرتهم بدنياهم، فذنبهم أعظم من ذنب غيرهم، فإن من المعلوم أن الكذب على الغير بما يضر يعظم إثمه، فكيف بمن يكذب على الله ويضم إلى الكذب الإضلال، ويضم إليهما حب الدنيا والاحتيال في تحصيلها، ويضم إليها أنه مهد طريقًا في الإضلال باقيًا على وجه الدهر؟! فلذلك عظم تعالى ما فعلوه. (وقد) حكى عنهم أمرين. أحدهما: كتبة الكتاب، والآخر: إسناده إلى الله تعالى على سبيل الكذب».

٣. **تأوله على غير معناه.**

وشاهده قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

وفي معنى الأماني ثلاثة أقوال ترجع في جملتها إلى تأول اللفظ على غير معناه:

«أحدها: أنها الأكاذيب. قال ابن عباس: إلا أماني: يريد إلا قولًا يقولونه بأفواههم كذبًا. وهذا قول مجاهد واختيار الفراء. وذكر الفراء أن بعض العرب قال لابن دأب وهو يحدث: أهذا شيء رويته، أم شيء تمنيته؟ يريد: افتعلته.

والثاني: أن الأماني: التلاوة، فمعناه: لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم.

قال الشاعر[2]:

تمنى كتاب الله أول ليلة

تمني داود الزبور على رسل

وهذا قول الكسائي والزجاج.

والثالث: أنها أمانيهم على الله، قاله قتادة»[3].

٤. **كتمانه والتواصي بذلك.**

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٦-٧٧].

ومعنى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ «يعني: منافقيهم. قالوا آمنا بأنكم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٩٤، ولم يعزه لأحد.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٨١.

على الحق، وإن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا﴾ أي: الذين لم ينافقوا منهم عاتبين على من نافق ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين نافقوا أعقابهم، إظهارًا للتصلب في اليهودية، ومنعًا لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فينافقون الفريقين»[1].

وفي إنكار بعضهم على بعض هذا التحديث دليل على هذه الصورة من التواصي بالكتمان.

وقد تضافرت هذه الصور الأربعة على تحريف الكتاب وجعله في قراطيس يبدون بعضها ويكتمون بعضًا، وكتابتهم ما ليس من الوحي فيها، وتأولهم لصحيحها على غير مراد الله منه، أو كتمانهم للحق كتمانًا كاملًا والتواصي بذلك لا مجرد إظهار بعضه تضليلًا وكتمان بعض. ولقد سهل عليهم ذلك بسبب استئثارهم بها، أو استئثار فئة خاصة منهم بها من دون سائر الناس. فلما أنزل الله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته جعله محفوظًا في صدور صبيانهم قبل كتب علمائهم.

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨٩.

ثالثًا: أسباب حفظ القرآن الكريم:

على خلاف الكتب السابقة، نزل القرآن الكريم على أمة أمية تعتمد على الحفظ أكثر من الكتابة، ثم إن نزوله مفرقًا؛ ليقرأه النبي صلى الله عليه وسلم على الناس على مكث قد جعله محفوظًا عند عامتهم لا تستأثر به طائفة: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

أي: «قطعناه آيةً آية وسورةً سورة في عشرين سنة ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ تؤدة وترسلٍ؛ ليفهموه ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ نجومًا بعد نجوم وشيئًا بعد شيءٍ»[2].

وبناء على ذلك فقد علم بالحجة العقلية القاطعة الحاصلة من التواتر الذي لا يختلف فيه العقلاء «أن القرآن، الذى هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف، هو الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثًا وعشرين سنة.

والطريق إلى معرفة ذلك هو النقل المتواتر، الذي يقع عنده العلم الضروري به. وذلك أنه قام به في المواقف، وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها من تابعه، وأورده على غيره ممن لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشتبه على أحد، ولا يخيل أنه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه، ويأخذه

(٢) الوجيز، الواحدي ص ٦٥٠.

على غيره، ويأخذه غيره على الناس، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها، وتعدى إلى الملوك المصاقبة لهم، كملك الروم والعجم والقبط والحبش، وغيرهم من ملوك الأطراف.

ولما ورد ذلك مضادًّا لأديان أهل ذلك العصر كلهم، ومخالفًا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر وقف جميع أهل الخلاف على جملته، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفاصيله، وتظاهر بينهم، حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير؛ إذ كان عمدة دينهم، وعلمًا عليه، والمفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم. ثم تناقله خلف عن سلف هم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا، على ما وصفناه من حاله. فلن يتشكك أحد، ولا يجوز أن يتشكك مع وجود هذه الأسباب، في أنه أتى بهذا القرآن من عند الله تعالى»[1].

ويؤيد ذلك أنه تحداهم به ولم يزل عجزهم عن معارضته قائمًا مع علمهم به واطلاعهم عليه، فلو جاز أن يكون القرآن الموجود بين أيدينا غير الذي تحدوا به؛ لنقل عنهم ذلك.

قال الباقلاني: «وإذا ثبت هذا الأصل وجودًا، فإنا نقول: إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم على ترك الإتيان به، طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوا بذلك، فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله.

وفي هذا أمران:

أحدهما: التحدي إليه.

والآخر: أنهم لم يأتوا له بمثل.

والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين»[2].

ويضيف الباقلاني أن العدد العظيم من الناس الذين أخذوا القرآن وتعلموه لدواع مختلفة ولو كانوا غير مسلمين، قد دل اتفاقهم على هذا القرآن أنه هو نفسه الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله، ولا يمكن أن يتشكك في ذلك عاقل، كيف والعقلاء لا يجيزون ذلك في مثل شعر امرئ القيس الذي لو زيد فيه لفظ؛ لتبرأ منه أصحابه؟!

قال: «وإن قال قائل: لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي، وإنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن، كان ذلك قولًا باطلًا، يعلم بطلانه بمثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا! وهو يبلغ حمل جمل! وأنه كتم، وسيظهره

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ١٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٨.

المهدي! أو يدعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان، رضي الله عنهما، حيث وضع المصحف، أو يدعي فيه زيادة أو نقصانًا.

وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ووعده الحق، وحكاية قول من قال ذلك يغني عن الرد عليه؛ لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي، وفي الأسفار والحضر، وضبطوه حفظًا، من بين صغير وكبير، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان، ولو زادوا أو نقصوا أو غيروا؛ لظهر، وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه إمساسها إلى القرآن لو زيد فيه بيت، أو نقص منه بيت، لا، بل لو غير فيه لفظ؛ لتبرأ منه أصحابه، وأنكره أربابه.

فإذا كان ذلك مما لا يمكن أن يكون في شعر امرئ القيس ونظرائه، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن، مع شدة الحاجة إليه في الصلاة التي هي أصل الدين، ثم في الأحكام والشرائع، واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه، فمنهم: من يضبطه؛ لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها، وصحة أدائها، ومنهم: من يحفظه؛ للشرائع والفقه، ومنهم: من يضبطه؛ ليعرف تفسيره ومعانيه، ومنهم: من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة، ومن الملحدين: من يحصله؛ لينظر في عجيب شأنه.

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة -على كثرة أعدادهم، واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم- أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان؟! ويبين ذلك: أنك إذا تأملت ما ذكر في أكثر السور مما بينا، ومن نظائره في رد قومه عليه ورد غيرهم، وقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، وقول بعضهم: إن ذلك سحر، وقول بعضهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ إلى الوجوه التي يصرف إليها قولهم في الطعن عليه»[1].

فالحجة العقلية الحاصلة من التواتر تشهد بأن نصوص القرآن الكريم محفوظة من التبديل أو التزييف أو التحريف، ولقد هيئت له عناية إلهية خاصة منذ أزف نزوله واقترب، فإذا الجن تلحظ تغيرًا لم تألفه في السماء حين صارت تجد شهبًا قد ملئت بها جوانبها تترصدها كلما اقتربت على خلاف عهدها السابق: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا

(١) المصدر السابق.

مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠].

ثم إنهم علموا أنهم قد عزلوا عن السماع لأجل أمر عظيم: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء ٢١٠-٢١٢].

ولقد اختير لهذه المهمة العظيمة أمين كريم ذو قوة مكين ومطاع في أهل السماء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

وكما اختير أمين في السماء اختير أمين في الأرض، وتولى الله تنقية سريرته وتصفية أمانيه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

وأعلن في الناس أنه لو أراد أن يبدله أو يحرفه -وحاشاه أن يفعل- ما استطاع ذلك: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

كما وعد بجمعه في صدره ثم يقرأه على الناس فلا يخطئ منه حرفًا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

وأعلن سبحانه في العالمين أنه هو من يتولى حفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأن الباطل لا يقربه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وأن أحدًا لن يستطيع له تبديلًا: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

ولقد نزل منجمًا فحفظ ونقل تواترًا كما سلف، وهو الكتاب الأوحد الذي ما يزال دليل صدقه -إعجازه- قائمًا فيه.

القرآن حجة الله على الناس

بين الله في كتابه أن القرآن الكريم هو حجته الدامغة على الناس، وسوف نتناول بيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: القرآن منذر لمن بلغه:

لحكمةٍ ما شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون معجزة النبي عليه الصلاة والسلام وحيًا، وأن ينزل بلسان عربي، وأن يظل قائمًا ومحفوظًا، وأن يكون حجة على الناس جميعًا، وأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بسببه أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة، كما في الحديث: **(ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)**[1].

قال ابن حجر -وهو يستعرض الأقوال في معنى الحديث-: «وقيل: المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وهذا أقوى المحتملات وتكميله في الذي بعده»[2] أي: قوله صلى الله عليه وسلم: **(فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)**.

وهذا الذي ذكره ابن حجر يفيد بأن الله عز وجل قد أودع في هذا القرآن ما يجعله معجزة مستمرة يتساوى في إدراكها السابق واللاحق، وقد نصت آية سورة الأنعام على أن لمن بلغه القرآن الكريم حكم من رأى النبي صلى الله عليه وسلم من قيام الحجة عليه بالبلاغ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ عقابه، وأنذر به من بلغه من سائر الناس غيركم، إن لم ينته إلى العمل بما فيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والإيمان بجميعه نزول نقمة الله به»[3].

ثم ذكر عن حسن بن صالح قال: «سألت ليثًا: هل بقي أحدٌ لم تبلغه الدعوة؟ قال:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ ١٨٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٩/ ٧.

(٣) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٩٠.

كان مجاهد يقول: حيثما يأتي القرآن فهو داعٍ، وهو نذير. ثم قرأ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ﴾»[1].

وقال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم وسمع منه. وفي الخبر أيضًا: من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذ به أو تركه. وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له»[2].

وهذا المعنى مستفاد من قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾: فأما قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ فالمراد: أنه تعالى أوحى إلي هذا القرآن؛ لأنذركم به، وهو خطاب لأهل مكة، وقوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾: عطف على المخاطبين من أهل مكة، أي: لأنذركم به، وأنذر كل من بلغه القرآن، من العرب والعجم، وقيل من الثقلين، وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن، فكأنما رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا التفسير فيحصل في الآية حذف، والتقدير: وأوحي إلي هذا القرآن؛ لأنذركم به، ومن بلغه هذا القرآن، إلا أن هذا العائد محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، كما يقال الذي رأيت زيد، والذي ضربت عمرو»[3].

وحمل قوله: سبحانه ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ على أن المراد منه: من بلغه القرآن هو الأشهر والأوفق للسياق، ولذلك اقتصر عليه كثير من المفسرين ولم ينصوا على أنه قد يراد من الآية معنى غيره، «وقيل: ومن بلغ الحلم. ودل بهذا على أن من لم يبلغ الحلم ليس بمخاطب ولا متعبد»[4]. قال الرازي: «وفي تفسير قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ قول آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: ومن احتلم وبلغ حد التكليف، وعند هذا لا يحتاج إلى إضمار العائد، إلا أن الجمهور على القول الأول»[5].

هذا ويستفاد من معنى الآية أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قائمة مقامه من بعده في تبليغ القرآن الكريم وبه تقوم الحجة على من بلغه، قال القرطبي: «وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغهما، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: (**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**)[6].

كما ينبني على ذلك أيضًا أن رسالة محمد

(١) المصدر السابق.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٩٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٩٩.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.

صلى الله عليه وسلم ممتدة زمانًا ومكانًا خلافًا لرسالات الرسل قبله، فهي تعم من بلغه القرآن الكريم في سائر البلاد ولو لم ير النبي صلى الله عليه وسلم في وقت كونه صلى الله عليه وسلم حيًّا كالنجاشي الذي آمن به ولم يره وتوفي مؤمنًا وصلى عليه عليه الصلاة والسلام صلاة الغائب، كما تعم «كل من يبلغه القرآن في جميع العصور»[1].

ومن ذلك ما ذكر ابن جرير في تفسيره: «قال ابن زيد، في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ قال: النبي النذير. وقرأ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقرأ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قال: رسل. قال: المنذرون: الرسل. قال: وكان نذيرًا واحدًا بلغ ما بين المشرق والمغرب، ذو القرنين، ثم بلغ السدين، وكان نذيرًا، ولم أسمع أحدًا يحق أنه كان نبيًّا. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ قال: من بلغه القرآن من الخلق، فرسول الله نذيره. وقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: لم يرسل الله رسولًا إلى الناس عامة إلا نوحًا، بدأ به الخلق، فكان رسول أهل الأرض كلهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم ختم به»[2].

وعليه، فإن هذا القرآن حجة الله القائمة على خلقه إلى يوم القيامة، هو معجزة النبي -عليه الصلاة والسلام- شاء الله أن يظل قائمًا ومحفوظًا، ومن بلغه فكأنما رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأمته أمينة على تبليغه من بعده قائمة مقام نبيها، ولأجل ذلك فالمسلمون أكثر أتباع الأنبياء يوم القيامة.

ثانيًا: سماع القرآن وأثره في قيام الحجة:

نصت سورة التوبة على أن سماع القرآن الكريم كاف في إقامة الحجة على المشركين ورفع العذر عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

قال ابن جرير في بيان معناها: «يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحدٌ؛ ليسمع كلام الله منك -وهو القرآن الذي أنزله الله عليه- ﴿فَأَجِرْهُ﴾، يقول: فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، يقول: ثم رده بعد سماعه كلام الله إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن إلى مأمنه، يقول: إلى حيث

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٦٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٦.

يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان؛ ليسمعوا القرآن، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم؛ من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله»[1].

والمقصود بسماعه: «فهم المقصود من دلالته على النبوة، وفهم المقصود به من التكليف، ولم يكن يخفى على العرب وجه الإعجاز فيه، وطريق الدلالة على النبوة، لكونه خارجًا عن أساليب فصاحة العرب في النظم والنثر، والخطب والأراجيز، والسجع والأمثال، وأنواع فصل الخطاب؛ فإن خلق الله له العلم بذلك، والقبول له صار من جملة المسلمين، فإن صد بالطبع، ومنع بالختم، وحق عليه بالكفر القول رد إلى مأمنه»[2].

ولئن مال أكثر المفسرين إلى أن هذا متحقق في شأن مشركي العرب خاصة؛ لما تهيأ لهم من معرفة وجه الإعجاز فيه، فإن سورة المائدة قد وصفت طائفة من القسيسين والرهبان بأنهم إذا سمعوه سارعوا إلى الاستجابة له، كما قال: جل وعلا: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

فقد وصفت الآية هؤلاء الذين هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا بجملة من الصفات:

«منها: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أي: علماء متزهدين، وعبادًا في الصوامع متعبدين. والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة؛ فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتوٌّ عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي

(١) المصدر السابق ١٤/ ١٣٨.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٥٩.

تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب»[1].

ويهمنا في هذا المقام ما وصفتهم به الآية من أن أعينهم تفيض من الدمع الذي هو دليل معرفة وإذعان، «وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه»[2].

وتكرر هذا الوصف في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

فقد جعلت الآية من صفة هؤلاء الذين أوتوا العلم أنهم يخرون ساجدين وباكين حين تتلى عليهم آيات القرآن الكريم، وقد اشتملت الآية على وصفين ذكرا في الآية السابقة يتفرع أحدهما عن الآخر وينتج الثاني الأول، وهو حصول علم سابق يؤدي إلى البكاء والسجود، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾، وقال: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: ففيض دموعهم، لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ[3].

وقد تضمنت آية سورة الإسراء أثرًا آخر وهو السجود، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

ومعنى الآية: «ف-﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاريه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له. ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عما لا يليق -بجلاله-، مما نسبه إليه المشركون.

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، ﴿لَمَفْعُولًا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لا خلف فيه ولا شك. ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/٥٠٧.
(٣) المصدر السابق.

القرآن ﴿خُشُوعًا﴾»[1].

ويبدو أن سبب هذا السجود رغبة تلقائية تحصل في نفوسهم من استشعار عظمة منزل هذه الآيات. ومما يؤكد حصول هذه الرغبة التلقائية قصة سجود المشركين عند نزول آيات سورة النجم، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: **(أول سورةٍ أنزلت فيها سجدةٌ (والنجم)، قال: فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من ترابٍ فسجد عليه! فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلفٍ)**[2].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: **(سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)**[3].

فالمشركون أنفسهم على كونهم مجاهرين بالعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومكذبين بالوحي، لم يتمالكوا أنفسهم حين سمعوه -عليه الصلاة والسلام- يتلو سورة النجم، فلما بلغ موضع السجدة منها سجد فخروا معه ساجدين، وهذا يدل على أن استشعار روعة هذه الآيات يحرك في نفس سامعها رغبة خفية في أن يخر ساجدًا باكيًا بين يدي بارئه وفاطره.

وعليه، فإن لسماع القرآن سرًّا يجعل سامعه أو طائفة من سامعيه يستشعرون عظمة منزله ويسارعون إلى الإيمان به، وقد يحصل له تأثير حتى على قلوب المعاندين له، وإن كان كبرهم يغلب عليهم في النهاية فيصرون على الصد عنه.

أما الذين زين الله قلوبهم بالإيمان وحلاهم بكماله وأذاقهم حلاوته فإن سماع القرآن يؤثر فيهم تأثيرًا خاصًّا، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

«أي: الله تعالى نزل بفضله ورحمته عليك -يا محمد- ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ أي: يشبه بعضه بعضًا في فصاحته وبلاغته، وفي نظمه وإعجازه، وفي صحة معانيه وأحكامه، وفي صدقه وهداياته وإرشاداته إلى ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم.

﴿مَثَانِيَ﴾ أي: تثنى وتكرر فيه القصص

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فاسجدوا لله واعبدوا)، ٦/ ١٤٢، رقم ٤٨٦٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فاسجدوا لله واعبدوا)، ٦/ ١٤٢، رقم ٤٨٦٢.

والمواعظ، والأمثال والأحكام والوعد والوعيد، كما تثنى وتكرر قراءته فلا تمل على كثرة الترداد، وإنما يزداد المؤمنون حبًّا وتعلقًا بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة.

وسمى سبحانه كتابه حديثًا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه. فلفظ الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم.

ولفظ: ﴿كِتَٰبًا﴾: بدل من قوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾. وقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ صفتان للكتاب ووصف بهما وهو مفرد، وكلمة: ﴿مَّثَانِىَ﴾ جمع، باعتبار اشتماله على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام.

أي: الله تعالى أنزل أحسن الحديث كتابًا مشتملًا على السور والآيات والمواعظ. التي يشبه بعضها في الإعجاز، والتي تثنى وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾من الاقشعرار، وهو الانقباض الشديد للبدن. يقال: اقشعر جسد فلان، إذا انقبض جلده واهتز، وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من الله تعالى.

أي: أن هذا الكتاب العظيم عند ما يقرؤه أو يسمعه المؤمنون الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر ونذر. ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ما قرؤوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة»[1].

وبناء على ما سبق، فإن لسماع القرآن تأثيرًا خاصًّا يتفاوت باختلاف السامعين له، وأقل ذلك دلالته العقلية الظاهرة على الحق، وارتفاع الحجة عمن سمعه -والله أعلم-.

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٢١٥.

حديث القرآن عن مواقف الناس منه

تحدث القرآن عن مواقف الناس منه، وهذا ما سوف نوضحه فيما يأتي:

أولًا: المستجيبون له:

قد تقدم أن القرآن الكريم قد وصف الذين أوتوا العلم بالسجود والبكاء عند سماع آيات القرآن الكريم، وذلك منهم إقرار به وإذعان له.

قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

«ففيض دموعهم؛ لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ»[(١)]، وسجودهم إذعان منهم لمُنزله.

كما ورد هذا الوصف في حق طائفة من القسيسين والرهبان: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

قال مجاهد: «هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة، وروي عن عطاء نحو ذلك»[(٢)].

وعن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي وفدًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا. قال: فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، إلى آخر الآية. قال: فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه، فأسلم النجاشي، فلم يزل مسلمًا حتى مات. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أخاكم النجاشي قد مات، فصلوا عليه! فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، والنجاشي ثم»[(٣)].

وقد روي أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٧.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٨٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٩٩.

أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾» [القصص: ٥٢-٥٥]. نزل فيهم أيضًا.

واختار ابن جرير أن تكون الآية قد أخبرت بذلك عن قوم هذه صفتهم من غير تعيين ولا قصر على قوم مخصوصين أو في زمن مخصوص، قال: «والصواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم؛ لأن منهم أهل اجتهاد في العبادة، وترهب في الديارات والصوامع، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين؛ لتواضعهم للحق إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه؛ لأنهم أهل دين واجتهاد فيه، ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسل، ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه»[1].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨].

وقال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]»[2].

وزيادة على إيمانهم به فقد أخبر القرآن عنهم أنهم يفرحون به، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ [الرعد: ٣٦].

و«قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم مسلمو اليهود، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: هم عبد

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٤.

الله بن سلام وأصحابه.

والثاني: أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة.

والثالث: مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى، ذكره الماوردي: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآن، فرح به المسلمون وصدقوه، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب؛ لأنه صدق ما عندهم»[(١)].

وقد نص القرآن الكريم على أن الذين أوتوا العلم يرون نصوصه حقًّا وتنزيلًا من الله وهادية إلى صراطه، قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه، فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضًا أنه في أوامره ونواهيه ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عيانًا، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق والإخلاص وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنهى عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها»[(٢)].

وقد دلت هذه الآيات على أن المتصفين بالعلم، الذين لم يعم الكبر والعناد قلوبهم، إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم شهدوا

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٩٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٥.

بصدقها وأقبلوا عليها خاشعين مذعنين مطيعين مستجيبين.

ثانيًا: الصَّادُّونَ عنه:

قص القرآن الكريم عن المشركين أنهم في خضم معاندتهم للحق وصدهم عنه قالوا إن قلوبهم مغلفة فلا يصل الحق إليها، وفي آذانهم صمم فلا يسمعون ما يتلو النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بينهم وبينه حجاب فلا يرونه.

قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١-٥].

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينون عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أي: أغطية مغشاة ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ أي: صم فلا نسمع لك ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فلا نراك.

القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه، من كل وجه، وأظهروا بغضه، والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا»[1].

وكما أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يسمعون تيئيسًا للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد تواصوا بعدم السماع للقرآن الكريم وأمر بعضهم بعضًا بذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهي: عطف على جملة ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ عطف القصة على القصة، ومناسبة التخلص إليه أن هذا القول مما ينشأ عن تزيين قرنائهم من الإنس، أو هو عطف على جملة ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُمۡ﴾ وهذا حكاية لحال أخرى من أحوال إعراضهم عن الدعوة المحمدية بعد أن وصف إعراضهم في أنفسهم انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أساليب الإعراض، فالذين كفروا هنا هم أئمة الكفر يقولون لعامتهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾[2].

وعلى هذا فإنهم مع زعمهم أن القرآن الكريم لن يؤثر فيهم؛ لأنهم لا يسمعونه وقلوبهم مغلفة عن أن يصل إليها، فإنهم لم يستطيعوا الصبر عليه بحيث تواصوا باللغو

(١) المصدر السابق ص ٧٤٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٧٧.

فيه وتناهوا عن سماعه، وما ذلك منهم إلا مخافة لتأثيره في بعضهم: «فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام، شريف معاني وبلاغة تراكيب وفصاحة ألفاظ، وأيقنوا أن كل من يسمعه وتداخل نفسه جزالة ألفاظه وسمو أغراضه قضى له فهمه أنه حق اتباعه، وقد أدركوا ذلك بأنفسهم، ولكنهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبروا تدبيرًا لمنع الناس من استماعه، وذلك خشية من أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن فصرفوهم عن سماعه.

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكمموا أفواه الناطقين بالحق والحجة، بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجة ويتراجعون بالأدلة؛ لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهض، فهم يسترونها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من البهتان والتضليل، فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعم نورها الناس الذين فيهم بقية من خير ورشد، عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق، ويغمرون الكلام القول الصالح باللغو، وكذلك شأن هؤلاء. فقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ تحذيرًا واستهزاء بالقرآن، فاسم الإشارة مستعمل في التحقير كما فيما حكي عنهم ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وتسميتهم إياه بالقرآن؛ حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسميته بذلك.

وتعدية فعل ﴿تَسْمَعُوا﴾ باللام؛ لتضمينه معنى: تطمئنوا أو تركنوا.

واللغو: القول الذي لا فائدة فيه، ويسمى الكلام الذي لا جدوى له لغوًا، فمعنى ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾: قولوا أقوالًا لا معنى لها أو تكلموا كلامًا غير مراد منه إفادة»[1].

في غمرة هذا العناد لم يشعر هؤلاء المعاندون أنه قد طبع على قلوبهم حقًّا وجعلت عليها أكنة وأغلفة مانعة من وصول الحق إليها فلا يفقهون معانيها، وأن آذانهم قد صمت عن سماع الحق، سماع من يستجيب له.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾

(١) المصدر السابق.

[الإسراء: ٤٥-٤٦].

«وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع (كنان)، الذي يغشى القلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به [1].

وهؤلاء يصل القرآن إلى آذانهم ولكنهم لا يسمعونه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ويصير القرآن الذي هو نور عمًى عليهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولأجل ذلك فهم لا ينتفعون بما فيه من تذكير ومواعظ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ولا تنشرح صدورهم لآياته: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

ويغضبون إذا تليت عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

وهؤلاء الصادون قد جحدوا بآيات الله، وقد استيقنتها قلوبهم بما خالطها من مرض وكبر وعناد، فهم يجادلون بكل باطل؛ ليدحضوا به الحق، فإذا تقطعت بهم السبل وأعيتهم الحجة انقلب كبرهم غضبًا وبطشًا، بل إن مجرد سماع آيات الله تتلى يستفز هذا الغضب في نفوسهم، فإذا هم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٢.

الأدب مع القرآن

بين القرآن بيانًا شافيًا أدب الناس مع القرآن.

أولًا: أدبهم مع صحفه:

وصف الحق سبحانه وتعالى كتابه بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦].

قال ابن عطية: «وقال بعض المتأولين: الصحف هنا اللوح المحفوظ، وقيل: صحف الأنبياء المنزلة، وقيل: مصاحف المسلمين، واختلف الناس في (السفرة)، فقال ابن عباس: هم الملائكة؛ لأنهم كتبة يقال: سَفَرْتُ أي: كتبت، ومنه السِّفْرُ، وقال ابن عباس أيضًا: الملائكة سفرة؛ لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه، وقال قتادة: هم القراء، وواحد السفرة سافر، وقال وهب بن منبه: هم الصحابة؛ لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخبر والتعلم، والقول الأول أرجح»[(١)].

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].

فهو محتمل لكونه خبرًا أو أمرًا، قال ابن العربي: «فقيل: لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي، وقيل: هو نفي. وكان ابن مسعود يقرؤها: (ما يمسه إلا المطهرون)؛ لتحقيق النفي»[(٢)].

وتفريعًا على ما سبق، فقد اختلف في المراد بالمس: أهو المس بالجارحة أم لا؟ وفي المراد بالمطهرين: هل هم المطهرون من الحدث أم من شيء آخر؟ قال القرطبي: «اختلف في معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ هل هو حقيقة في المس بالجارحة أو معنى؟ وكذلك اختلف في ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جبير: لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة. وكذا قال أبو العالية وابن زيد: إنهم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم، فجبريل النازل به مطهر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مطهرون.

الكلبي: هم السفرة الكرام البررة، وقيل: معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ لا ينزل به ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء. وقيل: لا يمس اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرون. وقيل: إن إسرافيل

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٣٨.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٤.

هو الموكل بذلك، حكاه القشيري»[1].

ويرى ابن العربي أن الملائكة لا تصل إلى اللوح المحفوظ، قال: «أما قول من قال: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فهو باطل؛ لأن الملائكة لا تناله في وقت، ولا تصل إليه بحال؛ فلو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه محل.

وأما من قال: إنه الذي بأيدي الملائكة من الصحف فإنه قول محتمل؛ وهو الذي اختاره مالك قال: أحسن ما سمعت في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في (عبس وتولى): ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ يريد: أن المطهرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة (عبس)[2].

وقيل: إن المراد المصحف الذي بأيدينا، قال الجصاص: «روي عن سلمان أنه قال: لا يمس القرآن إلا المطهرون فقرأ القرآن ولم يمس المصحف حين لم يكن على وضوء، وعن أنس بن مالك في حديث إسلام عمر قال: فقال لأخته: أعطوني الكتاب الذي كنتم تقرؤون، فقالت: إنك رجس وإنه لا يمسه إلا المطهرون! فقم فاغتسل أو توضأ، فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأه -وذكر الحديث-، وعن سعد أنه أمر ابنه بالوضوء لمس المصحف، وعن ابن عمر مثله، وكره الحسن والنخعي مس المصحف على غير وضوء»[3].

واختاره القرطبي، قال: «وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أن كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته: من محمد النبي إلى شرحبيل بن عبد كلال، والحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال قيل ذي رعين ومعافر وهمدان: أما بعد؛ وكان في كتابه: ألَّا يمس القرآن إلا طاهر. وقال ابن عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر).

وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ فقام واغتسل وأسلم، وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس»[4].

ويلاحظ من الاستظهار على تقرير النهي عن مس المصحف بالأخبار السالفة أن دلالة الآية عليه محتملة وغير صريحة، قال الجصاص: «إنْ حُمل اللفظ على حقيقة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٦.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٥.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣٠٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٦، وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٥.

الخبر فالأولى أن يكون المراد القرآن الذي عند الله والمطهرون الملائكة، وإنْ حُمل على النهي وإن كان في صورة الخبر كان عمومًا فينا، وهذا أولى؛ لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في أخبار متظاهرة أنه كتب في كتابه لعمرو بن حزم: ولا يمس القرآن إلا طاهر، فوجب أن يكون نهيه ذلك بالآية؛ إذ فيها احتمال له»، واقتصر الكيا هراسي على النص على أنها تدل على وجوب الوضوء لمس المصحف من غير تفصيل للمسألة فقال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ يدل على منع مس المصحف من غير وضوء»[1].

ويرى السايس أن منع المحدث من مس المصحف مستفاد من السنة، وذلك يغني عن تكلف إيجاد الدلالة عليه في الآية، قال: «من المفسرين من يريد إرجاع الضمير في: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ إلى القرآن الكريم، وأن من الآراء في ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ رأيًا يقول: هم المطهرون من الناس، وأن طهارتهم هي الطهارة الشرعية من الحدثين. على هذين الاعتبارين يقوم استدلال بعض الفقهاء بالآية على عدم مس المحدثين للمصحف، وعدم مس المحدث للمصحف أمر يكاد يجمع عليه، ومن أجازه من الفقهاء أجازه لضرورة التعلم، أو التعبد عند بعضهم، وقد يكون الحكم مُسلَّمًا لا اعتراض عليه، إنما الذي لا يسلم هو أن يكون الحكم مأخوذًا من هذه الآية، فإنك لمست ما فيها من احتمالات كثيرة، بل ويرجح بعض العلماء أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، وأن الضمير في ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ راجع إليه، وأنه حتى على فرض أن الكتاب القرآن، فليس هو المصحف، بل هو المصحف الذي بأيدي الملائكة، ولئن كان هو المصحف فالمطهرون يحتمل أن يراد منهم المؤمنون، ويراد من المس الإدراك، ويكون المعنى لا تفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلوب الملوثة أن تجد نور الإيمان. قال البخاري في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به»[2].

ثم يقول: «إذا كان المفسرون تبعا للفقهاء يستدلون بالآية من وجهها الذي استدل بها منه ابن تيمية على الحكم كان حسنًا، حيث قال: إن الآية تدل على الحكم من باب الإشارة والتنبيه؛ لأنه ما دامت صحف القرآن في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فالصحف التي بأيدينا كذلك ينبغي ألا يمسها إلا الطاهر»[3].

وبناء على ما سبق، يمكن أن نقول: إن

(١) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٣٩٩.

(٢) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٢١.

(٣) المصدر السابق.

الطهارة عند لمس المصحف أدب يتأدب به المؤمن مشابهة للملائكة المطهرين، وهو يلقي في نفسه شعورًا بعظمة هذا الكتاب وجلال منزله والحفاوة التي صاحبت نزوله وتلاوته في الملأ الأعلى، فضلًا عن كونه واجبًا شرعيًا عند أكثر الفقهاء، قال القرطبي: «الجمهور على المنع من مسه (لغير المتوضئ)؛ لحديث عمرو بن حزم.

وهو مذهب علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد ابن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة، فروي عنه أنه يمسه المحدث، وقد روي هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس والشعبي وغيرهما.

وروي عنه أنه يمس ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر. وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. ولم يمنع من حمله بعلاقة أو مسه بحائل.

وقد روي عن الحكم وحماد وداود بن علي أنه لا بأس بحمله ومسه للمسلم والكافر طاهرًا أو محدثًا، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله. واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه.

وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما: المنع اعتبارًا بالبالغ. والثاني: الجواز؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأن تعلمه حال الصغر، ولأن الصبي وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثًا»[1].

ثانيًا: أدبهم عند سماعه:

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يستمعوا وينصتوا إذا قرئ القرآن فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

«وقد وردت الآية هكذا عامة في وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال، وعلى جميع الأوضاع خارج الصلاة وداخلها، كل ذلك يجب فيه الاستماع والإنصات للقرآن الكريم إذا قرئ»[2].

قال السعدي: «هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه،

(١) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٢١.
(٢) المصدر السابق ص ٤٢٠.

ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[1].

لكن حمل الآية على ظاهرها بهذه الصورة المطلقة لم يجر على ألسنة المفسرين، وأغلبهم لا يناقش حتى هذا المفهوم المتبادر؛ فعقد ابن العربي مثلا للحديث عنها ثلاث مسائل تناول في أولها: سبب نزولها -وكأنه رآه مخصصًا ومبينًا لما يفهم من عمومها-، ثم تحدث في الثانية والثالثة عن حكم القراءة خلف الإمام[2].

وأما أبو بكر الجصاص فقد اقتصر في الحديث في أحكامه تحت الآية على مسألة القراءة خلف الإمام فقط[3]، وكذلك فعل الكيا هراسي الشافعي[4].

وقال الماوردي: «قوله عز وجل ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ أي: لقراءته. ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ أي: لا تقابلوه بكلام ولا إعراض ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

واختلفوا في موضع هذا الإنصات على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها نزلت في المأموم خلف الإمام ينصت ولا يقرأ، قاله مجاهد.

والثاني: أنها نزلت في خطبة الجمعة ينصت الحاضر لاستماعها ولا يتكلم، قالته عائشة، وعطاء.

والثالث: ما قاله ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة: سلام على فلان، سلام على فلان، فجاء القرآن من ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾»[5].

وأما القرطبي فرغم تمسكه بالعموم في الرد على كل من زعم قصر الآية على موضع مخصوص فقال: «قال بعضهم في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾: كان هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصًّا ليعيه عنه أصحابه. قلت: هذا فيه بعد، والصحيح: القول بالعموم؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والتخصيص يحتاج إلى دليل[6].

وقال أيضًا: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضًا أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبته هذه الآية وغيرها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.
(٢) انظر أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٣٦٤.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢١٥.
(٤) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٣/ ١٤٢.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٩٠.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٥٤.

من السنة في الإنصات. قال النقاش: أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة»[1].

بل وذكر أنه يفيد (في اللغة) ما هو أعم من ذلك، فنقل عن النحاس: أنه «في اللغة يجب أن يكون في كل شيء، إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء»[2]، إلا أنه لم يصرح -بل ولم يناقش ولم يطرح مطلقًا- مسألة وجوب الإنصات خارج الصلاة.

وقد ذكر الخازن في تفسيره أن الحسن والظاهرية أجروا الأمر على ظاهره، فقال: «وظاهر الأمر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء في ذلك أقوال:

القول الأول: وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجري هذه الآيات على العموم، ففي أي وقت وأي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت.

والقول الثاني: إنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة.

القول الثالث: إنها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام»[3].

قال ابن عاشور: «هذه الآية مجملة في معنى الاستماع والإنصات، وفي مقتضى الأمر من قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾، يبين بعض إجمالها سياق الكلام والحمل على ما يفسر سببها من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، ويحال بيان مجملها فيما زاد على ذلك على أدلة أخرى.

وقد اتفق علماء الأمة على أن ظاهر الآية بمجرده في صور كثيرة مؤول، فلا يقول أحد منهم بأنه يجب على كل مسلم إذا سمع أحدًا يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع وينصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته، فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله، ولكنهم اختلفوا في محمل تأويلها:

فمنهم من خصها بسبب رأوا أنه سبب نزولها، فنزلت هذه الآية في أمر الناس بالاستماع لقراءة الإمام. وهؤلاء قصروا أمر الاستماع على قراءة خاصة دل عليها سبب النزول عندهم على نحو يقرب من تخصيص العام بخصوص سببه، عند من يخصص به، وهذا تأويل ضعيف؛ لأن نزول الآية على هذا السبب لم يصح، ولا هو مما يساعد عليه نظم الآية التي معها، وما قالوه في ذلك إنما هو تفسير وتأويل، وليس فيه شيء مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من أبقى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنهم تأولوه على أمر الندب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية، ولو قالوا: المراد من قوله:

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٥٣.
(٢) المصدر السابق ٧/ ٣٥٤.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٨٦.

﴿قُرِئَ﴾ قراءة خاصة، وهي أن يقرأه الرسول -عليه الصلاة والسلام- على الناس لعلم ما فيه والعمل به للكافر والمسلم، لكان أحسن تأويلًا»[1]. لكن هذا الذي يستحسنه قد اعترض عليه القرطبي -أيضًا- بعموم اللفظ كما تقدم.

وبعيدًا عن الحكم الفقهي فإن الآية قد جاءت بأمر معلل تضمن أدبًا أُدب به المؤمنون:

فأما الأدب فهو الاستماع للقرآن الكريم إذا تلي والإنصات له: ﴿وَإِذَا قُرِئَ﴾ عليكم أيها المؤمنون ﴿ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ يعني: أصغوا إليه بأسماعكم؛ لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه، ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ يعني: عند قراءته، والإنصات السكوت للاستماع. يقال: نَصَتَ وأَنْصَتَ وانْتَصَتَ بمعنى واحد[2].

وأما العلة: فهي رجاء المستمع المنصت أن تشمله رحمة منزله سبحانه وتعالى، وذلك حاصل من تدبر ما تضمنته آياته من معانٍ ودلائل ووصايا وأوامر ونواهٍ «فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم المقضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين»[3].

فإذا استبعدنا التفكير الفقهي الذي يربط المسألة بالإيجاب أو الندب، فإن محل الاتفاق أن الإنصات إلى آيات الذكر إذا تليت ليس أقل من أن يكون أدبًا عظيمًا يتأدب به العبد الراجي؛ لأن يكون من المشمولين برحمة منزله الرحمن الرحيم.

ثالثًا: أدبهم مع دلالاته ومعانيه:

في سياق مدحه لأوليائه، وصف الرحمن عباده المنسوبين تشريفًا إلى جلاله بأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعميانًا فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

عن قتادة قال: «لم يصموا عن الحق ولم يعموا عنه، هم قوم عقلوا عن الله فانتفعوا بما سمعوا من كتاب الله. وقال مجاهد: كم من قارىء يقرؤها بلسانه يخر عليها أصم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٨٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٣٩.

أعمى»[١].

والمعنى: أنهم استمعوا إلى ما فيها من المواعظ وانتفعوا بها، قال أبو السعود: «﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المنطوية على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: أكبوا عليها سامعين بآذانٍ واعيةٍ مجلين لها بعيون راعية، وإنما عبر عن ذلك بنفي الضد تعريضًا بما يفعله الكفرة والمنافقون»[٢].

ومقصد الآية أن تثبت لهم الاتعاظ والانتفاع بعد حسن الإنصات والاستماع، فلما نفت ضده عنهم أضافت إلى ذلك معنى زائدًا، صورته الموازنة بين حالهم وحال المخذولين على جهة الترغيب في هذا، ونصبه في مقام القدوة، والترهيب من ذاك وبيان قبحه وتصويره في صورة النقيصة، «وإذا كان الكلام مقيدًا بقيد كما هنا، فإن النفي ينصب على ذلك القيد في غالب الاستعمال العربي. ونظيره: ما رأيت زيدًا راكبًا، نفيًا للركوب لا للرؤية. ولا يلقاني مُسلِّمًا نفيًا للسلام لا للقاء. فلم ينف عنهم الخرور، وإنما نفى عنهم الصمم والعمى عند الخرور»[٣]. على أنه قد تقدم «وصفهم [هم أنفسهم]. فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل، ومجانبتهم لأهله، وبعدهم عنه.

ثم وصفهم هنا بإقبالهم على الحق، وإكبابهم عليه، متفهمين مستبصرين»[٤].

فأما (الخرور): فـ«هو السقوط كسقوط الساجد»[٥]، و «هاهنا أمران: ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه. وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود؟ وهل المعنى: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه. فلهم عليها خرور بالقلب خضوعًا، أو بالبدن سجودًا أو ليس هناك خرور، وعبر به عن القعود؟»[٦] كلٌّ محتمل. وبناء على اختيار أحد المعنيين يكون حمل الخرور على وقوع السجود منهم حقيقة، أو وقوع الهيبة والشعور بعظمة منزل هذه الآيات في القلب، ولا ريب أن الأمرين واقعان، يقع منهم هذا مرة، ويقع هذا منهم أخرى، وقد يجتمعان معا.

و«(الأصم): فاقد حاسة السمع، أو الذي لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به، وهو المراد هنا.

و(الأعمى): فاقد حاسة البصر، أو الذي لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به، ويكون الأعمى بمعنى فاقد الإدراك القلبي، وهو عمى البصيرة، وما هنا يحتمل الوجهين الأخيرين.

وعبر بـ (إذا)؛ لأن التذكير مما هو واقع محقق، كالذي يسمع من القرآن في الصلاة

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٣١.
(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٣٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤١٣.

ومن الخطب في الجمع. وبنى الفعل للنائب؛ لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكر كان»[1].

وعلى هذا فهؤلاء الموصوفون -على جهة المدح والتشريف- بأنهم عباد الرحمن من صفاتهم التي استحقوا بها المنزلة والثناء «أنهم إذا ذكرهم مذكر بآية ربهم التي أنزلها على نبيهم - صلى الله عليه وآله وسلم- بما فيها من ذكر مخلوقاته وإنعاماته، وأيامه في أوليائه وأعدائه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه- أقبلوا عليها، وأكبوا على سماعها، بآذان واعية، وأبصار راعية، وقلوب حاضرة، وعقول متدبرة. لا كمن يقبلون عليها ويكبون على سماعها، ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون؛ لأنهم لا يعقلون ولا يتدبرون»[2].

وعليه يكون الاتعاظ والانتفاع، والمبادرة والاستجابة والإسراع، من بعد حسن الإنصات والاستماع من أوجب الآداب التي يتأدب بها الطامع في رحمة ربه الراجي لها.

هذا وقد ذكر كثير من المفسرين أن قوله جل وعلا في السورة نفسها: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

شامل لتارك التدبر والنظر في آيات الله. أي: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ مناديًا لربه وشاكيًا له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفًا على ذلك منهم: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه، قال الله مسليًا لرسوله ومخبرًا أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل[3].

وقد ذكر ابن كثير لهذا الهجر صورًا ومراتب فقال: «يقول تعالى مخبرًا عن رسوله ونبيه محمد -صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين- أنه قال: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، وكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه. فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضًا من هجرانه، وترك

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٣٣.
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٨٢.

الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره -من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره -من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار، على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب»[1].

وبناء على ما قال فلا يخرج العبد عن أن يعد في أهل هذه الشكوى حتى يكون تاليًا متفهمًا متدبرًا لآيات الكتاب مستأنسًا بها مؤثرًا لها على غيرها.

قال ابن باديس تحت عنوان (تحذير وتنبيه): «قد صورت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه، ويتلقاه بالقبول، ثم لا يتفهمه ولا يتدبره، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه؛ تقبيحًا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات، وتحذيرًا منه، وتنبيهًا على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهذب به الأخلاق، وتتزكى به النفوس، وتتقوم به الأعمال، وتستقيم به الأحوال؛ إنما يكون بتفهمه، وتدبره، دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر»[2].

وحينئذ فإن «الناس عند تلاوة آيات القرآن على قسمين: معرضين، ومقبلين.

فالمعرضون غير المؤمنين.

والمقبلون على قسمين: مقبلين بظاهرهم دون باطنهم، ومقبلين بظاهرهم وباطنهم.

فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون.

والمقبلون بظاهرهم وباطنهم على قسمين: مستمعين، مستبصرين، حاضرين، متدبرين. وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين.

والأقسام كلها مذمومة إلا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم، المستمعين المستبصرين. وهذا القسم هو الذي وصف به عباد الرحمن، فكانوا مباينين لأهل الإعراض من الكافرين والمنافقين، ولأهل الغفلة، وعدم التدبر من المؤمنين»[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٨.

(٢) تفسير ابن باديس ص ٢٣٥.

(٣) المصدر السابق.

أثر القرآن على المكلفين والجمادات

قد ورد أنه لو قدر لكلام أن يخلع الجبال عن أماكنها، ويقطع الأرض، أو أن يكلم الموتى في قبورهم به لكان هذا القرآن، وأن لآياته عظمة حقيقة بأن تخشع لها الجبال وتتصدع.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

فلعظمة القرآن وإعجازه كاد يحدث هذا الأثر العجيب في ما هو شديد من المخلوقات كالجبال، ومع ذلك فقد كفر به خلق وصدوا عنه.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مادحًا للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، ومفضلًا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له»[1].

فقد كادت آيات القرآن تخلع الجبال، وكذا فإنه لو أنزل عليها لتصدعت وخشعت مع أن قلوب البشر لا تفعل، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فتضمنت الآية تعظيمًا لأمره، وتبيينًا لعلو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟

ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، فمن تفكر علم أن في قلوب بعض الناس قسوة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٦٠.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٧٨.

تفوق قسوة الجبال.

وبناء على ما سبق، فإنه يفترض حصول الخشوع في قلوب الناس عند سماع القرآن الكريم، كما نصت على ذلك الآية التي اشتملت على أمر غير مباشر بتحقيق هذا الخشوع، فعن ابن عباس قال: يقول تعالى: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله، فأمر الله -عز وجل- الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [1].

ونص على ذلك القرطبي أيضًا فقال: «قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ حث على تأمل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي: متشققة من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق» [2].

وهذا الخشوع أولى بأن يكون أثرًا في قلب المؤمن، وقد وصف القرآن الكريم حالة تحصل في نفس المؤمن تصاحب الخشوع سماها: (شرح الصدر) في قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣].

ودل سياق الآيات على أن حالة الانشراح هذه مصاحبة للخشوع: فقد قابلتها الآية بصورة القلب القاسي، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [3]، ثم أعقبت ذلك ببيان أثر القرآن على الجلود والقلوب.

ومعنى الآية: «أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ يقول: فهو على بصيرة مما

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٠١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٣.

هو عليه ويقين، بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متبع، وعما نهاه عنه منته فيما يرضيه، كمن أقسى الله قلبه، وأخلاه من ذكره، وضيقه عن استماع الحق، واتباع الهدى، والعمل بالصواب؟

وترك ذكر الذي أقسى الله قلبه، وجواب الاستفهام اجتزاء بمعرفة السامعين المراد من الكلام، إذ ذكر أحد الصنفين، وجعل مكان ذكر الصنف الآخر الخبر عنه بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكرًا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدق بما فيه.

وقيل: ﴿مِن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والمعنى: عن ذكر الله، فوضعت (من) مكان (عن)، كما يقال في الكلام: أُتخمت من طعام أكلته، وعن طعام أكلته بمعنى واحد، هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين، لمن تأمله وتدبره بفهم أنه في ضلال عن الحق جائر»[1].

ومقابلة صورتي (منشرح الصدر مقشعر الجلد) و (قاسي القلب) تدل على أن هذا الانشراح مرتبط بالخشوع.

وكما نصت الآية على انشراح الصدر نصت أيضًا على لين القلب: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. «واللين: ضد الخشونة، وقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فإشارة إلى إذعانهم للحق وقبولهم له بعد تأبيهم منه»[2].

وقد يكون هذا اللين هو المنصوص عليه في قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]: أي: «تسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله»[3].

«و(طمأنينة القلوب) هي الاستكانة، والسرور بذكر الله، والسكون به كمالًا به. ورضى بالثواب عليه وجودة اليقين»[4].

ودل قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ على أن الطمأنينة لا تحصل إلا بذكر الله وحده. فتكون هذه الحالة النفسية من انشراح الصدر ولين القلب وطمأنينته مصاحبة لهذا الخشوع أو أثرًا له.

وقد ذكرت آية سورة الزمر تأثيرًا آخر للقرآن الكريم على ما يظهر على أبدانهم فنصت على أن جلودهم تقشعر عند سماعه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٧٧.

(٢) المفردات، الراغب ص٧٥٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٣٢.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣١١.

﴿يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٢٣].

فـ «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف»[(١)].

وهذه الحالة ترد عليهم أولًا، ثم تعقبها حالة أخرى هي لين الجلود والقلوب: «﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه.

قال السدي: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى وعد الله»[(٢)].

وفي قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ «دليل على أن هذه القشعريرة ناتجة عن شيء في القلب وهو الخشوع والخشية؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «الوجل في القلب كإحراق السعفة، أَمَا تجد له قشعريرة؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك»[(٣)].

أي: إنها حالة متفرعة من الخشوع والخوف والوجل، وسائر ذلك مما يرد على قلب المؤمن عند سماعه آيات التنزيل تتلى.

موضوعات ذات صلة:

الإنجيل، التوراة، الكتب المنزلة، محمد صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣)